

التضامن الإنساني في الإسلام

د. سرور طالبي المل، رئيسة مركز جيل البحث العلمي

لقد حرص الإسلام على تنظيم العلاقات البشرية من خلال قواعد سلوكية مثالية مبنية على التضامن والفضائل ومكارم الأخلاق تكسب المجتمع أمنا وطهرا وخيرا، كما تحقق انصهار أفرادها وترابطهم وتقديمهم.

فالإسلام يفرض على المؤمنين مجموعة من الواجبات الاجتماعية، وعلى رأسها واجب التكافل والتساند والتماسك فيما بينهم، وإرشاد بعضهم بعضاً بما فيه الخير لهم وللإنسانية جمعاء.

إذ يعتبر الإسلام دعوة خالصة للتعاطف بين أفراد العائلة بل وحتى بين أفراد المجتمع ككل، لقوله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾^١.

الكلمات المفتاحية: التضامن - التكافل - التعاون - الرحمة - الإيمان

Résumé

L'Islam est une religion de paix, fondée sur un ensemble de règles et de vertus favorisant la solidarité et la fusion de tout les membres de la société.

De ce fait il impose des obligations sociales, en premier lieu le devoir de solidarité et de cohésion entre les membres de la famille et même parmi les membres de la communauté dans son ensemble à s'avoir de l'humanité.

Mots-clés: Solidarité - Coopération - compassion – Croyance.

مقدمة:

يتضمن القرآن الكريم مجموعة من الأحكام تنظم العلاقات الإنسانية في ثلاثة مجالات مختلفة وهي: العلاقة بين الإنسان وخالقه، العلاقة بين الإنسان ونفسه، وأخيرا العلاقة بين الإنسان وغيره من بني الإنسانية جمعاء، وعليه فلقد صدق الله حيث قال في الآية^٣ من سورة الأنعام: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

ويعتبر التعاون والتكافل على البر والتقوى في الإسلام واجب بل وشرط للإيمان طبقا لقول الرسول الأعظم (ص): "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، لأن المؤمنين في الإسلام ومهما اختلفت أجناسهم وأعراقهم وأصولهم.... هم

١ سورة المائدة، الآية ٢.

بنيان وجسد واحد لقوله (ص): " المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشُدُّ بعضُهُ بعضاً"، مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

وأبعد من ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى يحذر المؤمنين بأنه لن يرحم ولن يعين من لا يرحم ولا يعين غيره لقوله (ص): "من لا يرحم لا يرحم" وكذلك "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته"، "الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه" ... وعليه سنتوقف من خلال هذه المداخلة عند أربع أنواع من التكافل وهم:

- التكافل العائلي والاجتماعي في الإسلام
- التكافل المادي في الإسلام (الزكاة)
- الكفالة المادية والاجتماعية للمرأة في الإسلام
- الإسلام دين سلام والمعاملة الإنسانية

أولاً: التكافل العائلي والاجتماعي في الإسلام

لقد أكد الإسلام على وحدة الأصل والنسب فحرم كافة أساليب التفرقة والمفاضلة التي كانت سائدة في المجتمعات القديمة بين الشعوب والطوائف أو بين الطبقات والأحساب والأنساب...، واضعاً البشرية جمعاء في الدرجة نفسها من الأهمية وعلى قدم المساواة في التمتع بالكرامة الإنسانية وبال حقوق المقررة للإنسان.

وفي هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً ﴾¹، ولقد وضَّح رسول البشرية المقصود من وراء هذه الآية الكريمة فقال عليه الصلاة والسلام في خطبة الوداع: " يا أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد كلُّكم لأدم وأدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى".

كما اعتبر الإسلام الناس جميعاً أمة واحدة تجمعهم الإنسانية للصيقة بهم حتى ولو اختلفت أديانهم أو لغاتهم أو ألوانهم لقوله تعالى: ﴿ كان الناسُ أمةً واحدةً فبعث اللهُ النبيين مبشرين ومنذرينَ وأنزلَ معهم الكتابَ بالحق ليحكم بين الناسِ فيما اختلفوا فيه ﴾، ﴿ ولو شاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أمةً واحدةً ولكن ليبلوكم في ما أتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعُكم جميعاً فيُنبتنكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾، وقوله كذلك: ﴿ ومن آيته خلقُ السماواتِ والأرضِ واختلافِ ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآياتٍ للعالمين ﴾².

وعليه فإن سنة الله في خلق عدة شعوب وقبائل ليس لكي يتقاتلوا أو يتنازعا أرض الله التي هي واسعة، وإنما ليتعارفوا ويتعاونوا، طبقاً لما جاء في الذكر الحكيم: ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾³.

١ سورة النساء الآية ١.

٢ أنظر على التوالي: سورة البقرة الآية ٢١٣، سورة المائدة الآية ٤٨، سورة الروم الآية ٢٢.

٣ سورة الحجرات الآية ١٣.

وتعتبر العائلة في الإسلام مؤسسة مقدسة لها روابطها الروحية وليس الاجتماعية فقط ولها أركانها الأخلاقية العامة وليس الفردية النفسية فقط، لذلك فهي ذات مقام قيبي مكرس لا يجوز الاستهتار به ولا التصرف حياله وهي المؤسسة التي يشارك فيها الرجل والمرأة اللذان جمعهما الله عز وجل لغرض عظيم وفي ظل رابطة مقدسة هي رابطة الزواج،¹ من أجل بناء المجتمع من خلال إنجاب صحي ورعاية سليمة.²

ولقد دعم الإسلام الأسرة وقواها وربطها برباط مقدس شريف، وبعث فيها الحب والتعاون والمودة والإخلاص. وتقوم الأسرة في الإسلام على أساس احترام متبادل لحقوق كل فرد من أفرادها كالوالدين والأبناء والأزواج... بالإضافة إلى التزام كل واحد منهم بواجبات متبادلة.

ففي حقوق الوالدين قال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾³ وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا³.

أما فيما يخص حقوق الأطفال فلقد ألزم الإسلام الوالدين معاملة أطفالهم معاملة حسنة وتعهدهم ورعايتهم وتأديتهم وتوجيههم توجيها صالحا في الحياة والتصرف في أموالهم تصرفا سليما يقيمهم من الحاجة ويوفر لهم ظروف الحياة الطيبة والكرامة، وكل ذلك على قدم المساواة بين الذكور والإناث، وفي هذا المعنى يقول رسول الله (ص): "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته".

وفي حقوق الأطفال في الإسلام كذلك، الحق في الرضاعة لقوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾⁴ وفي المقابل على الأبناء كما رأينا أن يقوموا بشئون والديهم بل وحتى إخوتهم الصغار والأقارب إذا كانوا قادرين على ذلك.

ومن جهة أخرى، ألزم الإسلام أفراد المجتمع بالتكافل والتعاضد المتبادل بحيث يرق غنيمهم لفقيرهم ويسد شبعانهم حاجة جائعهم، فلقد أوصى القرآن الكريم في أكثر من موضع بالجار القريب والجار البعيد، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب﴾⁵.

كما أوصى (ص) على الجار في أكثر من حديث من بينها: "ليس منا من من بات شبعان وجاره جائع". وقوله كذلك: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت"،¹ وما إلى ذلك من أحاديث حتى اعتقد البعض بأن الجار سيُورث.

¹ وعليه فإن الإسلام يحرم شتى أنواع العلاقات الجنسية غير الشرعية من زنا وبغاء ومصادقة ومتعة، حفظا للأسرة ولكيانها المقدس، أنظر في ذلك د. محمد عبد المنعم خفاجي، الإسلام وحقوق الإنسان، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، مصر، 1951، ص 110-111.

² أنظر: د. سرور طالبي: حقوق وواجبات المرأة في الأسرة: بين إجحاف القوانين والوثائق العربية ومبالغة الصكوك الدولية، كتاب أعمال المؤتمر الدولي السابع لمركز جيل البحث العلمي حول المرأة والسلم الأهلي، طرابلس، لبنان، إصدارات مركز جيل البحث العلمي، 21 آذار 2015، ص 63-76.

³ سورة الإسراء الأيتان 23 و 24.

⁴ سورة البقرة، الآية 233.

⁵ سورة النساء الآية 36.

كما بين الرسول (ص) عدة حقوق للجار، فقال: "أدري ما حق الجار؟ إذا استعانك أعنته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا افتقر عدت عليه، وإذا مرض عدته، وإذا أصابه خير هنأته، وإذا أصابته مصيبة عزيتته، وإذا مات اتبعت جنازته، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذ به بقتار قدرك إلا أن تعرف له منها، وإن اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فادخلها سرا، ولا يخرج بها ولدهك ليغيظ بها ولده".²

ثانياً: التكافل المادي في الإسلام (الزكاة)

يحارب الإسلام الجشع الاقتصادي مهما كانت مظاهره، فيحظر الربا، ويحظر الشركات التي تقوم على هذا النظام، كما يحظر الوسائل التي تؤدي عادة إلى تضخم رؤوس الأموال كابتزاز الناس أو غشهم أو التحكم في ضروريات حياتهم واستغلال عوزهم وحاجاتهم أو غير ذلك من ممارسات تعتمد على التعدي واحتكار لأموال وممتلكات الغير بالباطل.

وفي المقابل يشجع الإسلام روح الجماعة وتيسير سبل الحياة لكل إنسان، على أساس " أعط المال لغيرك ليهيئ لنفسه الفرص الطيبة والشرعية في الحياة ثم استرده منه".³

فأساس العلاقات الاقتصادية في المجتمع الإسلامي هو التعاون على الصعوبات المادية من خلال توفير سبل الكسب الحلال عن طريق السعي والعمل و حماية أموال أفراد من الاستغلال أو الضياع.

فالمال في الإسلام ليس هدفاً، إنما هو وسيلة لتأمين المتطلبات المادية للمجتمع البشري في ظل جو من التعاون والتكافل، بحيث من بين مهامه الأساسية، مهمة اجتماعية والمتمثلة بتفريغ كرب المجتمعات وتحقيق المصالح العامة الأساسية.

ومن هذا المنطلق فرض الإسلام في السنة الثانية من الهجرة الزكاة، وهي ضريبة مالية سنوية على أربعة أنواع من الثروة والمتمثلة في: الزرع والثمار، والأنعام، والذهب والفضة، وأخيراً على شتى مظاهر النشاطات الاقتصادية، من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية وسد حاجات المعوزين وتحول دون تضخم المال.⁴

فالزكاة عبارة عن جزء قليل من المال يخرجته المسلم الميسور سنويا لسد حاجة المحتاجين والمحرومين وهم: ذو القربى واليتامى والفقراء والمساكين وابن السبيل والسائلون أو العاملون عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمون.⁵

١ رواه البخاري ومسلم.

٢ رواه الخرائطي في باب مكارم الأخلاق، د. عمر صدوق، دراسة في مصادر حقوق الإنسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ٥٠.

٣ د. محمد عبد المنعم خفاجي، المرجع السابق، ص ١٤١.

٤ الأصل في الزكاة أن تدفع إلى بيت المال ليتكفل بتوزيعها على الذين تحق لهم، فبييت المال إذن هو عبارة عن مؤسسة خيرية تقوم بالسهر على شئون الناس وتسد حاجاتهم وتؤمن لهم الظروف المعيشية الكريمة وتعالج حالات الفقر... أنظر في ذلك د. على عبد الواحد وافي، حقوق الإنسان في الإسلام،

دراسات إسلامية، مطبعة الرسالة، مصر، ص ٣١. ٢٤

٥ أنظر سورة التوبة الآية ٣٤ و ٣٥ و ٦٠

وسورة البقرة الآية ١٧٧ و ٢١٥ و ٢٤٥، ٢٦١ - ٢٧٤

سورة آل عمران الآية ٩٢

سورة النساء الآية ٣٢ و ٣٧، سورة التوبة الآية.

كما أوجب الإسلام على بيت المال أن ينفق على العاجزين أطفالا كانوا أو شيوخا أو نساءً إذا لم يكن ثمة من أقربائهم من تجب عليه نفقتهم، ولا يفرق الإسلام في ذلك بين المسلم وغير المسلم.

ولقد سار الخلفاء الراشدون على هذا الدرب والمثال على ذلك الحادثة التي وقعت بين الخليفة عمر بن الخطاب والشيخ اليهودي الضير الذي كان يسأل الصدقة، فأخذ رضي الله عنه بيده وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجد، ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له: " أنظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية وهو شاب وتركناه يتسول وهو شيخ، إنما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من المساكين من أهل الكتاب"، وأجرى له رزقا دائما من بيت المال.¹

فالزكاة ليست مجرد التزام ديني بل ركن من أهم أركان الإسلام له علاقة مباشرة ووطيدة بالإيمان بالله، ففي هذا السياق يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبلَ المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ﴾.²

كما تعتبر الزكاة أحسن نظام مالي يحقق العدل والتكافل الاجتماعي، ولقد حبب الإسلام إلى الميسورين التصديق بأموالهم على المحتاجين، وجعله من أكبر القرب وأعظمها أجرا، وفي المقابل جعل اكتناز الأموال وعدم إنفاقها في سبيل الله أو منع استثمارها من كبائر المعاصي، وتوعد المكتنزين بأشد عقوبة يوم القيامة، وفي هذا المعنى يقول (ص) مخاطبا أحد الأغنياء، وهو عبد الرحمان بن عوف قائلا: " يا ابن عوف إنك من الأغنياء ولن تدخل الجنة إلا زحفا فأقرض الله يطلق قدميك".³

وبالإضافة إلى الزكاة السنوية، أوجب الإسلام على الميسورين أن يخرجوا صدقات في بعض المواسم التي تتكرر سنويا، ومن أهم هذه الصدقات: زكاة الفطر، الصدقة من الضحايا التي يجب نحرها في عيد الأضحى.

وأبعد من ذلك عمد الإسلام إلى التشجيع على التكافل المادي بين أفراد المجتمع بتشريع التكفير عن بعض الخطايا بالصدقة "الكفارة" أو "الفدية" وفي هذا قوله تعالى في القتل الخطأ: ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبته مؤمنةً وديةً مسلمةً إلى أهله ﴾.⁴

وفضلا عن كل هذا، أباح الإسلام للحاكم أن يتصرف في توزيع الأموال العامة على وجه يحقق التوازن الاقتصادي بين الطبقات، وهذا بالضبط ما قام به رسول الله (ص)، بحيث سعى إلى التقريب بين ثروات المهاجرين وثروات الأنصار وهما الفريقان اللذان كانا يشكلان أول مجتمع إسلامي⁵، وذلك بالطبع بوحى من الله تعالى، بحيث جاء في الذكر الحكيم: ﴿ ما أفاء

١ د. على عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٣٤ .

٢ سورة البقرة الآية ١٧٧ .

٣ حديث صحيح الإسناد، أنظر

عمر عبيد حسنه لكتاب أ. يسري محمد أرشد، حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، كتاب الأمة، سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، العدد ١١٤، السنة السادسة والعشرون، ٢٠٠٦، ص ٧٩.

٤ سورة النساء، الآية ٩٢ .

٥ أنظر د. على عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٣٥ .

أفأء الله على رسوله من أهل القرى فليله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم^١.

ثالثاً: الكفالة المادية والاجتماعية للمرأة في الإسلام

لقد كانت المرأة في الحضارات القديمة مستضعفة ومهضومة الحقوق حتى جاء الإسلام فأنصفها وأعلى مكانتها وضمن لها حقوقها المشروعة، وعلى رأسها إقراره لكرامتها وإنسانيتها وأهليتها لأداء رسالة سامية في المجتمع، فوجدت ممن حولها التقدير والاحترام اللائق بها كأُم مربية للأجيال، وزوجة لها حقوق وعليها واجبات، وشابة يسان عرضها من عبث العابثين وأصحاب الشهوات.

ولقد عنى القرآن الكريم بشؤون المرأة في كثير من سوره، حتى عرفت إحدى السور بسورة النساء الكبرى، وعرفت أخرى بسورة النساء الصغرى وهما: سورة النساء وسورة الطلاق.

فيقول سبحانه وتعالى في الآية الأولى من سورة النساء: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء﴾. كما يقول في سورة الأعراف الآية ١٨: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾.

ومن جهة أخرى، سوت الأحاديث النبوية الشريفة بين الرجل والمرأة بحيث يقول رسول الله (ص): "الناس كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى". ويقول كذلك: "النساء شقائق الرجال لهن مثل الذي عليهن بالمعروف"^٢.

ولقد خفف الإسلام للمرأة جناح الرحمة والرعاية وكفل لها من أسباب الرزق ما يصونها ويحميها من شرور الكدح في الحياة فأعفاها من كافة الأعباء المعيشية وألقاه ا جميعا على كاهل الرجل، دون أن يحرمها من حقها في العمل. فالإسلام يفرض نفقة المرأة على ولي أمرها والمتمثل في الأب أو الأخ إذا لم تكن متزوجة أما إذا تزوجت فإن واجب النفقة ينتقل إلى الزوج، وذلك حتى لو كانت غنية وفق قاعدة لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

وفي هذا السياق يقول (ص) في حجة الوداع: "أيها الناس إن لكم على نساءكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، إنهن لا يملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله".

وعليه فان نفقة المرأة العزباء أو المتزوجة أو المطلقة أو الأرملة في المجتمع الإسلامي واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها أو طليقها حسب الحالة وترتيب الفقه الإسلامي لهم، أما إذا استحال عليهم ذلك أو لم يكن لها قريب فإن نفقتها واجبة على بيت المال.

ومن هذا المنطلق فإن التفرقة بين الرجال والنساء في الميراث التي لاطالما انتقد الإسلام من وراءها غير منافية لمبدأ المساواة وإنما هي تصحيح للوضع الذي يفترض أن تقوم عليه المجتمعات والعائلات المسلمة^١.

١ سورة الحشر، الآية ٧.

٢ رواه أبو داود في كتاب الطهارة، ج ١، ص ٦١.

فمسؤولية الرجل في الحياة من الناحية المادية أوسع بكثير من مسئولية النساء، فالرجل هو رب الأسرة وهو القوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها سواء كان متزوجاً أو سيصبح مكلفاً بذلك بعد زواجه. وعلى الرجل وحده كذلك تجب نفقة الأقرباء فحين المرأة لا يكلفها الإسلام حتى بالإنفاق على نفسها.

ومن جهة أخرى، فإن قوامة الرجل على المرأة في الإسلام قوامة رحيمة قائمة على المودة والمحبة والإرشاد، وهي مقيدة بقيود كثيرة تحفظ للمرأة كرامتها وتصون حقوقها وتحقق مصلحتها على خير وجه، لأنها رعاية ومحبة مخلصه وليست بسلطان مفروض، كما هي تدبير وإرشاد وليست بسيطرة ولا استبداد.

وعليه فلقد صدق من قال بأن الإسلام قد رفع من شأن المرأة ووضعتها في مكانة لم ولن يضعها فيها أي قانون ديني أو مدني آخر.²

رابعاً: الإسلام دين سلام والمعاملة الإنسانية

كما نظم الإسلام أمور الحياة كافة ديناً ودنياً، فقد عالج أمور الحرب باعتبارها ظاهرة اجتماعية، ووضع خير المناهج والمبادئ لكل ما يتصل بها من حيث أهدافها وأساليب ادارتها.

وإسلام دين السلم والرحمة، لذا يدعو بادية ذي بدء الى السلام بين الناس وينهي اثاره الحروب وانتشار القتل فيقول سبحانه وتعالى: " يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ۖ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ".³

ويعتبر شن الحروب في سبيل السيطرة أو الاستعلاء أو استعباد الناس والسيطرة على مقدرات الشعوب ونهب خيراتها فساداً، والمسؤولين على ايقادها مفسدين، كما جاء في الآية الكريمة عن بني اسرائيل الذين يفعلون ذلك: "كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِيَحْرِبَ أَطْفَالَهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ".⁴

كما دعنا الله الى اختيار الحلول السلمية لفض النزاعات التي قد تقوم بين الأمم والدول الإسلامية بقوله تعالى: " وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ".⁵

ولقد شرعت الحرب في الاسلام إما لرد العدوان أو من أجل رفع الظلم:

- ففيما يخص رد العدوان يقول سبحانه وتعالى: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ".⁶

١ فللذكر مثل حظ الأنثيين في الأولاد والإخوة والأخوات، وللزوجة من زوجها المتوفى نصف نصيب الزوج من تركة زوجته ونصيب الأب من تركة ولده يزيد أحياناً على نصيب الأم ولا ينقص عنه في أي حال، للتوسع في الموضوع أنظر في ذلك د. على عبد الواحد وافي، المرجع السابق، ص ٥٠ - ٥١ .

٢ راجع تغاير بيضون، المرأة والحياة الاجتماعية في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥، ص ٤٨.

٣ سورة المائدة الآية ١٥-١٦ .

٤ سورة المائدة الآية ٦٤ .

٥ سورة الأنفال الآية ٦١ .

٦ سورة الحج الآية ٣٩ .

• أما فيما يخص رفع الظلم واحقاق الحق وابطال الباطل فالحرب في هذه الحالة ليست مشروعة فحسب بل واجبا شرعيا لقوله سبحانه وتعالى: "وَمَا لَكُمْ لَأ تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا"¹.

وقد كان قتال رسول الله (ص) لا يخرج عن هاتين الحالتين حماية للدين وارساء لقواعد وحدة الأمة ودفاعا عن حدودها من قوى كانت تترصد بها وتحاول القضاء عليها، وكانت الحروب الاسلاميه التي خاضتها جيوش المسلمين من بعده في عهد الخلفاء الراشدين اتماما للمهمة التي بدأها الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولقد وضع الإسلام قيودا أخلاقية تحد ما قد يصاحب الحروب والمعارك غالبا من مبالغه في القسوه واسراف في القتل وأبرز هذه القيود هي

• المحافظة على النفس الانسانيه:

فالأصل في الاسلام المحافظه على النفس الانسانيه وعدم إهدارها، لذا حرم الاعتداء على الحياة لقوله تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ"². وقوله كذلك: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا"³. ولقد جاء في السنن "لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم".

والمسلم مطالب بأن يستحضر هذا المبدأ حتى وهو في ساحة المعركة فلا يجوز قتل غير المقاتلين: فقد منع رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان⁴، كما لا يجوز قتل الأسرى أو الجرحى أو المنقطعون للعبادة من رجال الدين إذا لم يقاتلوا وكذلك الخدم وكبار السن.

• حسن معاملة الأسرى:

يلزم الإسلام المسلم أن يعامل الأسير معاملة إنسانية، وذلك لضعفه وانقطاعه عن أهله وقومه وشد حاجته للمساعدة. وقد قارن القرآن الكريم بره ببر البيتامي والمساكين فقال سبحانه في وصف المؤمنين "وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا"⁵.

• عدم الإساءة الى المدنيين والبيئة:

وذلك بالمحافظة على مصادر المياه والطعام للمدنيين من الاعداء الا في حاله الاضطرار. وينسجم ذلك مع هدف الحرب في الاسلام فانها وسيله لاصلاح الناس وارشادهم وازاله العوائق التي تحول دون اطلاعهم على الدين الصحيح ولا يجوز في دين الاسلام ان يقاتل المسلمون رغبه في التدمير او اذلالا للناس أو تعذيبا لهم كما كانت تفعل جيوش الامم الاخرى كاليهود الذين كانوا يدمرون كل شيء لاعدائهم: مدنهم ومزارعهم وحيواناتهم كما يقتلون كل حي فيهم من طفل او امرأه او شيخ فان.

¹ سورة النساء الآية ٧٥.

² سورة الأنعام الآية ١٥١.

³ سورة المائدة ٣٢.

⁴ مختصر صحيح مسلم للمنذري ج ٢ ص ٦٠.

⁵ سورة الانسان الآية ٨- ٩.

الخلاصة:

ما يسعنا في الأخير إلا أن نؤكد أن مفهوم التضامن "التكافل" في الإسلام مفهوم واسع جدا يغطي كل المجالات وكل الحالات الاجتماعية الممكنة، أي سواء تعلق الأمر بالوالدين أو الأطفال أو النساء أو العاجزين وحتى الجيران، وأسرى الحروب ... أضف إلى ذلك فإن عبء مسؤولية هذا التكافل تقع ليس على الدولة فحسب كما هو عليه الحال بالنسبة للاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان وإنما على الفرد كذلك.

ويعتبر التعاون والتكافل على البر والتقوى في الإسلام واجب بل وشرط للإيمان، وعليه فإن الإسلام يحث المؤمنين على كل أوجه الخير والبر والإحسان والتضامن بين أفراد المجتمع بل وحتى البشرية، سواء كان ذلك فرادة أو جماعة، من خلال الصدقة والإحسان وصرف أموال الأوقاف العامة لرعاية شئون الفقراء والمحتاجين، أضف إلى ذلك فإن الإسلام يشجع على إكرام الجار والضيف وابن السبيل، ومعاملة أسرى الحروب أو الفارين منها معاملة إنسانية.

النتائج والتوصيات:

يعتبر الإسلام رسالة سماوية إنسانية شاملة وخالدة، أحدث أعظم انقلاباً عالمياً وأكبر ثورة فكرية تفوقت على كل النظريات الاجتماعية والفلسفية والقوانين الوضعية، لأنه كرم الإنسان ومنحه كافة حقوقه ليعيش حياة كريمة وعادلة توفق بين المادة والروح والدين والدنيا معا.

كما أن الرسول الأكرم محمد (ص) هو أول داع إلى وحدة البشرية والأخوة الإنسانية المطلقة، وهي دعوة إنسانية عالمية أساسها السلام ومحاربة العصبية والقيود الجائرة وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله، وفي ظل رسالة كاملة وشاملة هي شريعة الله، وعليه نوصي في نهاية هذه المداخلة على ضرورة:

- نبذ الكراهية والحقد وعدم التسامح والازدراء بين الأفراد والجماعات والشعوب؛
- حظر إثارة الحروب ومنع انتشار القتل والعنف والعنصرية والسيطرة على مقدرات الشعوب ونهب خيراتهم؛
- تشجيع الاحترام المتبادل بين مختلف الثقافات والأديان بما فيه المصلحة العامة للإنسانية جمعاء؛
- تعميق التفاهم والمودة والتآلف بين الشعوب والجماعات، وترسيخ قيم التعاون وروح الجماعة وتيسير سبل الحياة بكرامة للجميع؛
- تشجيع التضامن بكافة أشكاله وإعتماد نظام الزكاة باعتباره أحسن نظام مالي يحقق العدل والتكافل الاجتماعي؛
- إبداء إهتمام خاص بالأسرى واللاجئين والنازحين وضحايا الكوارث الطبيعية وذلك لضعفهم وحاجتهم الماسة إلى المساعدة؛
- عدم الاساءة إلى البيئة والمحافظة على مصادر المياه والطعام منعا لانتشار الأوبئة والفقر والمجاعة؛
- ترسيخ قيم السلام والتعاون وتربية الاجيال الصاعدة عليهما؛ من خلال مواصلة عقد ندوات ومحاضرات ومؤتمرات متخصصة وندوات تدريبية في مناطق متعددة من الوطن العربي.